

المحاضرة الثالثة: مصطلح النقد

تمهيد

مصطلح النقد لم يكن معروفا متداولاً في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، ولم يوجد حتى في المعاجم اللغوية التي ألفت بعد مجيء الإسلام، بل كانت هناك اصطلاحات أخرى مثل: البصر بالشعر، أو المعرفة الشعرية، أو العلم بالشعر، أو الفراسة في الشعر، وحتى كتب النقد أيضاً لم تكن تستعمل كلمة نقد في الميدان الأدبي إلا نادراً

تعريف النقد

أ- لغة نقْد: لغة ضرب الطائر بمنقاره في الفخ. والنقد تمييز الدراهم¹، ونقده ناقشه في الكلام. ومن الناحية اللغوية وردت الكلمة عند ابن سلام 231هـ أثناء حديثه عن الجهبذة* بالدرهم والدينار، فقال: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تتقفه العين، ومنها ما تتقفه الأذن، ومنها ما تتقفه اليد، ومنها ما يتقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة ولا وزن، دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تُعرف جودتهما بلون ولا مسّ ولا طراز ولا وسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها"².

ويشير ابن سلام لدور الناقد، فيقول: "وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابك. قال: إذا أخذت درهما فاستحسنته، فقال لك الصراف: إنه رديء، فهل ينفعك استحسانك إياه؟"³

اصطلاحاً

من الصعب تحديد أول من استعمل اللفظة بمدلولها الاصطلاحي، لأن النقاد العرب القدامى عرفوا النقد ممارسة قبل أن يعرفوه مصطلحاً⁴، وقد جاء هذا الاستعمال مقصوراً على

¹ - الزبيدي، تاج العروس مادة نقد.

* - الجهبذة: نقد المزيف والصحيح من الدراهم والدنانير.

² - ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 5. و ابن رشيق: العمدة ج1 ص118.

³ - المصدر نفسه، ص 7.

⁴ - ينظر: طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص6.

طائفة قليلة، منهم: المفضل الضبي، المتوفى سنة 168 هـ، وهو يتحدث عن راوٍ من الرواة، اسمه حماد الراوية، فيقول المفضل الضبي عنه: قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبداً. ف قيل له: وكيف ذلك؟ أخطئ في روايته أم يلحن؟ فقال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك !.

كما استعملها الجاحظ (255هـ) بمذلولها الاصطلاحي حيث قال: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه".¹

وميز الجاحظ بين أنواع عديدة من النقد والنقاد، فقال: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب".²

كما استعملها ابن طباطبا (ت: 322 هـ) في قوله: "وكم من زائف وبهرج قد نفقا علة نقادهما، ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهواً".³

كما استعملها قدامة بن جعفر (ت: 337هـ) وجعلها مضافة إلى الشعر في كتابه (نقد الشعر) وذكرها في مقدمته حيث قال: "ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً.."، وقال إن النقد علم مجاله تخليص الجيد من الرديء.⁴

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص54.

² - نقلا عن: محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي، ص385-386.

³ - ابن طباطبا العلوي (محمد بن أحمد) عيار الشعر، ص8.

⁴ - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 15 (المقدمة).

وسئل البحتري (ت: 284هـ) أَمْسَلَمَ أشعر أم أبو نواس؟ فقال: بل أبو نواس، لأنه يتصرف في كل طريق، ويبهر في كل مذهب، إن شاء جدّ وإن شاء هزل. ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه. فقل له إن ثعلباً لا يوافقك على هذا. فقال: أيها الأمير ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، وإنما يعرف الشعر من دُفع إلى مضايقه¹.

ومن الآراء النقدية التي تعبر عن **وظيفة النقد بمعناه الاصطلاحي** قول القاضي علي عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة: " الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان. وقال: ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولّد، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر، فإذا استكشفت عن هذه الحال وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العربي إلا رواية، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع، وملاك السمع الحفظ".²

مسار النقد الأدبي خلال عصور الأدب العربي (نماذج تطبيقية)

إن النقد الأدبي عند العرب نشأ في شكل ملاحظات على الشعر والشعراء، قوامها الذوق الساذج، فكان ذلك سبباً لتجويد الشعر. وقد ارتبط ذلك باللفظ والمعنى الجزئي، والاعتماد على الانفعال والتأثر، دون أن تكون هناك قواعد مدونة، يرجع إليها النقاد في شرح أو تعليل.

1- في العصر الجاهلي: ومن أمثلة ذلك ما ورد من أن المثلث قد ألقى قصيدة على جمع من الناس، وفيهم طرفة بن العبد. فلما قال المثلث:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكّدم

ومعنى البيت: (إنني أتغلب على الهموم التي تحضرني بالسير على جملي فأنجو

منها به).

¹ - نقلاً عن: محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي، ص 38

² - ابن رشيق: العمدة، ج1، ص 121-122.

عندئذ قال طرفة : استتوق الجمل، (أي جعله ناقه) . لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير¹.

ومن الأمثلة على بداية النضج في النقد ما كان يحدث في سوق عكاظ أشهر أسواق العرب، فيروى أن النابغة كانت تضرب له قبة من آدم ويأتي الشعراء فينشدونه أشعارهم فيكون له الرأي الأول والأخير، فيشتهر الشاعر الذي استحسن شعره، ويذكر أن من بين الشعراء الذين نوه بهم: الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت، وتقول الرواية أنه لما أنشده حسان قصيدة منها:

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما

فنفقه النابغة وقال له:

- إنك قلت: (الجففات) وهي من جمع القلة ، والأحسن لو قلت (الجفان) لكثرة العدد .
- وقلت: يلمعن (في الضحي) أي تلمع في وضح النهار - ولو قلت (يبرقن) (في الدجي) لكان أبلغ لأن الضيوف في الليل أكثر طروقا .
- وقلت أيضا: (أسيفنا) وهي جمع قلة - ولو قلت (سيوفنا) جمع كثرة لكان أفضل .
- وقلت (يقطرن دما) أي تسيل منها قطرات الدم . ولو قلت يجرين (لكان أفضل فجرين الدم دلالة على كثرة القتل من الأعداء .

ونلاحظ في نقد النابغة السابق أنه يركز على مدي دقة استعمال الكلمات الملائمة

للمعني ، وكيف تكون كلمة أدق وأبرع في التعبير عن المعني المراد لأن نجاح الشاعر في اختيار أدق الكلمات المناسبة يسهم في قوة المعني وتأثيره في نفس السامع.

هذه الشواهد تدل على وجود أشكال من صور النقد الأدبي في العصر الجاهلي.

2- في صدر الإسلام: جاء في كتاب الأغاني: أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال:

حدثنا عمر بن شبّة قال: حدثنا ابن عائشة قال: أنشدَ النبي صلى الله عليه وسلم قول عنتره:

ولقد أبييت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

¹ - ينظر: طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص13.

فقال صلى الله عليه وسلم: ما وُصِفَ لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة.¹
ومن آراء عمر بن الخطاب النقدية ما ورد في كتاب الأغاني " قال عمر بن الخطاب
ليلة مسيره إلى الجابية (قرية قرب دمشق) أين ابن عباس؟ فأتيته فشكا تخلف علي بن أبي
طالب رضي الله عنه، فقلت: أولم يعتذر إليك؟ قال: بلى. قلت فهو ما اعتذر به. ثم قال...
هل تروي لشاعر الشعراء؟ قلت ومن هو؟ قال الذي يقول:

ولو أن حمدا يُخلدُ الناسَ أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت ذاك زهير. قال فذاك شاعر الشعراء. قلت وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: نه كان لا
يعاقل في الكلام، وكان يتجنب حوشي الشعر، ولا يمدح احدا إلا بما فيه.²

3- في عصر بني أمية

لما قدم القرن الهجري الأول تعددت بيئات الشعر، فقوي النقد بقوته، وتعددت
نواحيه، فمن نقد لغوي، إلى آخر نحوي، وثالث عروضي، ورابع يلحظ البيئة، وخامس يُعنى
بأحوال الشاعر في العملية الإبداعية... إلخ.

وكان خلفاء بني أمية يعقدون المجالس الأدبية يتحدث فيها الحاضرون عن الشعر
والشعراء، ويلقي المادحون قصائدهم فتتال الاستحسان أو الإعراض والانتقاد، واشتهر
الخليفة عبد الملك بن مروان بأحكامه النقدية، فيروي عنه أنه قال لمادحيه: «تشبهونني مرة
بالأسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر، أما قلتم كما قال كعب الأشقري:

ملوك ينزلون بكل ثغر إذا ما الهام يوم الروع طارا

رزان في الأمور ترى عليهم من الشيخ الشمائل و النجارا

نجوم يُهتدي بهم إذا ما أخو الظلماء في الغمرات جارا

ومن الشواهد النقدية لهذا العصر كذلك مدح ابن قيس الرقيات عبد المالك بن مروان
بقصيدة جاء فيها:

إن الأغرّ الذي أبوه أبو العا ص عليه الوقار و الحجب

¹ - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج8، ص243، ط دار الكتب.

² - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج10، ص288.

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له الخليفة : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم ! ، وتمدح " مُصْعَبَا " كأنه شهاب من الله . وذكر الشاعر بما قال في مدح مصعب بن الزبير ، و رأى ذلك أجمل مما قال فيه في قوله:

إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عِزّة ليس فيه جَبَروت ولا فيه كِبَرياء

كما تنتقل كتب الأدب في هذا العصر الكثير من المواقف النقدية لسكينة بنت

الحسين، ولابن أبي عتيق وغيرها...

4- في العصر العباسي

يعد العصر العباسي عصر العلم والدراسات والمناظرات الفلسفية والدينية، والمؤثرات الأجنبية والصراع بين القديم والمحدث، وفي هذا العصر خطأ النقد خطوات فسيحة باتجاه التجرد من تأثير العواطف والأهواء والعصبية، واعتمد على العلم والمنطق في التحليل الأدبي، وعلى تعليل الظواهر الأدبية، وابتعث النقد في هذا العصر من ثلاث نزعات أو اتجاهات¹:

1- اتجاه عربي صرف لم تمازجه ثقافات وافدة أو تؤثر فيه عوامل دخيلة، وقد تمثل هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين والنحاة كالخليل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والنضر بن شميل والكسائي والأخفش وابن الأعرابي والمبرد ومن على شاكلتهم ممن كانت لهم دراية باللغة وأصولها والشعر وروايته.

وصور هذا النقد مبنوثة في ثنايا كتب الأدب والنقد الأولي كالأغاني لأبي الفرج والموشح للمرزباني والشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات ابن المعتز وغيرها كما تمثل هذا الاتجاه عند بعض النقاد الأوائل الذين عالجوا النقد حسب ما انتهى إليه علمهم في مصنفات

¹ - محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي، ص388.

مستقلة، رتبوا فيها الشعراء الى طبقات كما فعل ابن سلام، أو تناولوا فيها الحديث عن الشعراء وأخبارهم ومنزلتهم كما فعل ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء¹.

2- اتجاه عربي اعتمد على الطبع والذوق ثم دعمته الثقافات المتنوعة التي نهضت به و غذته وكانت له رافداً قوياً، ولكنها لم تقض على أصالته وسمات عربيته وهو ما نلحظه عند الآمدي في موازنته، وعند القاضي الجرجاني في وساطته، وذلك في باب نقد الشعر، وعند رجل كالجاحظ في جمال نقد النثر.

وقد اتسم نقد هؤلاء باستقصاء البحث وشمول الفكرة وتوضيح العلة والموازنة بين الشعراء. 3- وثالثهما: اتجاه تأثر فيه أصحابه بالتيارات الثقافية الأجنبية شكلاً وموضوعاً حيث خضع النقد فيه لسلطان المنطق والفلسفة وغلب فيه العقل على الذوق والفكر على الحس، وقد تمثل هذا الاتجاه عند قدامة ابن جعفر في كتابه -نقد الشعر- الذي كان تأثره فيه بمنطق اليونان واضحاً.

¹ - ينظر: طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص 111 وما

بعدها.